صور من الشعر الحديث في العراق

للاستاذ ابراهيم الوائلي

الزهاوي

ويحتج الشاعر على هذا المنع :

بأي كتاب أم بأية سنة أصد مهانا عن طريق وأمنع

ولكن هذا الاحتجاج الصارخ لما يقابل بشيء غير التجسس ورفع التقارير إلى السلطات الحاكمة :

فما نبسوا لي بالجواب وإنما أعدوا جواسيسا ورائي تتبع

تراقب أفعالي وكل عشية إلى (يلدز) عني التقارير ترفع

ويتضح لنا أن الشاعر كان قد ذهب إلى تركيا مع رفاقه مطالبين بالحرية ورفع الظلم عن البلاد العربية وبخاصة العراق وقد كان لهذه المطالبة صدى معكوس في الدوائر الحاكمة . ويتضح لنا أيضا أن الشاعر كان ذا خطر يخشى منه الحكام ويخافونه فلم يأمنوا جانبه إذا بقي في تركيا هو ورفاقه ولم يأمنوا جانبه إذا عاد إلى بلاده حراً طليقاً لذلك أعدوا له الأرصاد وبثوا له العيون وضيقوا عليه منافذ عيشه حتى أرجعوه محوطا بالقوة التي لا ترحم وبالجواسيس الذين لا ذمة لهم ، ولم يكن نصيب أصحابه بأقل من نصيبه فقد نفي كل واحد منهم إلى مكان وأبعد إلى منأى وعومل بمثل ما عومل به الشاعر . وهنا نترك مجال التعبير للشاعر نفسه يحدثنا عن مشهد من أشق المشاهد وأفجعها عليه وهو مشهد التوديع وما يبعثه من أسى ولوعة ، مشهد الشاعر يودع أصحابه بقلب واجف مضطرب ودمع سخي متدفق ، ومشهد أصحابه وهم يودعونه بمثل ما ودعهم به وكل واحد منهم محوط بفريق من الشرطة يسرعون به في طريق النفي والابعاد :

أودعهم والقلب ممتلىء لهم حنانا وجفن العين بالدمع مترع

يشيعهم قلبي يسير وراءهم وقلبهم يمشي ورائي يشيع

يحيط بنا من كل صوب وجانب فريق من (البوليس) يسعى فيسرع

نبعد منفيين كل لبلدة وما ذنبنا الا نصائح تنفع

إذا فلم يكن ذنب الشاعر حين لاقى ما لاقاه هو وأصحابه إلا الدعوة إلى الاصلاح ورفع الحيف عن الشعوب المكبلة بالأغلال .

وتنتهي هذه القصة المؤلمة بالاستنكار لهذا الوضع الجائر ولتحمل الأذى والظلم ، ووصف ما كان يلاقيه الشاعر من تهديد بالموت الذي هو خير من هذه الحياة الداكنة :

إلى أي وقت نعبد الظلم خشية فنسجد للقوم البغاة ونركع

حملنا الأذى حتى حنا من ظهورنا وقيل لنا لم يبق في القوس منزع

يهددني بالموت قوم وأنه لدون الذي من عسفهم أتجرع

والموت خير من حياة مهانة يرى الخروج السوء فيها ويسمع

ويرسم لنا الزهاوي صورة أخرى لهذا الظلم . وقصة من تلك القصص التي تتجدد كلما تجدد والي أو حاكم . قصة الأحرار المشردين . والسكاكين التي تشحذ كل يوم . والرعية التي تساق سوق الأغنام ، والرشوة التي قضت على معالم العدل وغيرت مجرى القوانين . كل ذلك نجده في قصيدته « الظلم والعدل » :

تأن في الظلم تخفيفاً وتهويناً فالظلم يقتلنا والعدل يحيينا

يا مالكا أمر هذي الناس في يده عامل برفق رعاياك المساكينا

لهوت عنا بما أوتيت من دعة فابيض ليلك واسودت لياليا

ثم يستعرض بكاء الأرامل . وتقتيل الشباب ، وقسوة الولاة والرشوة وضياع العدل :

كم نسوة قتلت ظلما بمولتها فصرن يهملن دمعاً قبله صينا

وكم شباب من الأحرار قد هلكوا وللإرادات قد صاروا قرابينا

قست قلوب ولاة أنت مرسلهم كأنما الله لم يخلق بهما لينا

تراهم أغبياء عند مصلحة وفي المفاسد تلفاهم شياطينا

وضاع في الملك عدل يستظل به ما بين إغماض مرشي وراشينا

ان الرعية أغنام يحد لها عمالك المستبدون السكاكينا

ولكن :

ما جاءنا الشر إلا من تهاوننا ما عمنا الظلم إلا من تغاضينا

ان في ديوان « الكلم المنظوم » كثيراً من هذا النغم الثائر

الحزين الذى يتدفق عن حرارة ولهفة وينبع من أعماق النفس ، وكله لا يختلف من حيث العاطفة المشبوبة والموسيقى اللفظية .

ونكتفى بهذا القدر الذى سقناه مما نظمه الزهاوى أيام الاستبداد لنتحدث عن شعره بعد إعادة الدستور ولنرى موقفه من هذا الحادث العظيم فى تاريخ الدولة العثمانية .

لم نجد للزهاوى قصائد كثيرة فى مناسبة الدستور وإنما كل الذى وجدناه لا يصل إلى ما وصل إليه ذلك الذى نظمه أيام الاستبداد ؟ وهذا القدار القليل كاف لأن يفسر لنا مذهب الشاعر وموقفه حيال الدستور وهو موقف الفرح المستبشر والراضى المطمئن .

فى « الكلم المنظوم » قصيدة عنوانها (التعاون) قالها بعد إعلان الدستور — أو بالأحرى إعادته — وتلاها يوم انعقدت جمعية الاتحاد فى بغداد، والقصيدة لا تتجاوز خمسة وعشرين بيتا نجتزىء منها ما يأتى :

حزب التعاون فى الدنيا هو الناجى ... تمشى على ضوئه فى ليلنا الداجى
قد أفلحت أمة فى قصده نهجت ... فانه للترقى خير منهاج
ان الذى أصبحت عينى تشاهده ... قد أبهج القلب منى أى إبهاج
قد أعلنت للورى حرية فمضى ... زمان سخرة ذى أمرو (قرباج)
واطلقت كل نفس من اسارتها ... هذا الذى كان يرجو نيله الراجى

ثم يؤرخ هذه المناسبة :

فقال فى وصفها شعرى يؤرخها: (تحرر الناس من أسر وإحواج)

ويصادف هذا التاريخ سنة ١٣٢٦ هـ .

وقصيدة أخرى عنوانها « عيد ومأتم » قالها فى هذه المناسبة وقد صادف أن مات رجب باشا صديق الشاعر أيام اعادة الدستور فجمع الشاعر بين الفرح والحزن :

عم البلاد سرور لا يكدره ... إلا وفاة أبى احرارها رجب
أفراحنا برزا يا ناقد اختلطت ... فقلت : قد طابت الدنيا ولم تطب

ليس هذا الذى تحدثنا عنه بقريب على الزهاوى وقد نفى وشرد وأبصر بعينه ما يجرى فى العراق وغير العراق من سوء المعاملة وما تعانيه هذه الأقطار من فقر وجهل وما يقع على الأحرار والأبرياء من تنكيل واضطهاد. ليس بغريب على الزهاوى أن يثور على عبد الحميد وولاته وأن يستبشر بعودة الأستور ولكن الغريب أن عبد الحميد الذى يقول فيه الزهاوى :

أيأمر ظل الله فى أرضه بما ... نهى الله عنه والنبى المبجل

وجدناه فى شعر الزهاوى حاميا للدين الاسلامى رافعاً منار الشريعة كما فى قصيدته (الفتح الحيدى) :

تهنيك بالفتح المبين الذى به ... تسامى منار للشريعة واستعلى !!

ولنا أن نعتذر عن الشاعر بما فسرنا به موقف الكاظمى من العاطفة الدينية التى استجاب لها الزهاوى حين رأى انتصار عبد الحميد على أوروبا الشرقية فاهتز لهذا الانتصار كما اهتز له غيره من الشعراء. وإلا فأى رافع لمنار الشريعة ذلك الذى حاد عن سنن النبى والكتاب ؟ .

ابراهيم الوائلى

عدو الشعب الجاشنكير

للاستاذ عطية الشيخ

تتمة

فى قلعة الكرك .

وقف اعرابيان على باب قلعة الكرك واستأذنا فى الدخول على الناصر ذاكرين أنهما من مصر . فلما مثلا بين يديه كشف ابن قراسنقر لثامه فعرفه السلطان وقال له : محمد ؟ فقال لبيك يا مولانا السلطان ، وقبل الأرض وقال لابد من الخلوة ، فصرف السلطان من حوله . وآنئذ حدثه محمد باتفاق أبيه مع قبجق وأستدمر على مناصرته ، وسلم إليه كتابا من الثلاثة الموالين مضمونه لوم الملك على النزول عن العرش ووعده برجوع ملكه إليه ، فلما قرأه قال يا محمد ، ما لهم قدرة على ما اتفقوا عليه ، فإن أمراء مصر والشام قد اتفقوا على سلطنة بيبرس ، والشاعر يقول .

كن جريا إذا رأيت جبانا ... وجبانا إذا رأيت جريا
لا تقاتل بواحد أهل بيت ... فضعيفان يغلبان قويا